مقياس، تاريخ وحضارة المغرب والاندلس

الدرس السابع: الدولة الفاطمية في المغرب 297هـ 396هـ

مقدمة: كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب التحدي الشيعي الوحيد الذي تمكن من تأسيس دولة قوية تنافس بل تهدد الدولة العباسية في قيادتها السياسية والدينية للعالم الإسلامي، واتخذ التشيع منذ نشأته الأولى اتجاها مضادا للعصبية العربية، وكما أن التشيع في المشرق اعتمد على الموالي من الفرس، فأنه كذلك في المغرب اعتمد على الموالي من البربر، ولهذا كانت بلاد تربة خصبة لإنبات بذور التشيع، هذا فضلا على أن بلاد المغرب كانت بعيدة عن السلطة المركزية في بغداد الامر الذي كفل للدعوة الشيعية الحماية وجعل من الصعب على العباسيين فرض رقباتهم التامة على تلك البلاد وتعقب العلويين فيها.

يمكن تقسيم قيام الدولة الفاطمية الى مرحلتين مرحلة الدعوة السرية ومرحلة الدولة.

مرحلة الدعوة :كان القائم بالدعوة الاسماعلية رجلا من الكوفة وهو رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الذي عرف بمنصور اليمن لتغلبه على الوالي العباسي وعلى أمراء اليمن، وقد دأب على ارسال الدعاة الى اليمامة وعمان والبحري ومصر والمغرب، والجدر بالذكر أن التشيع عرف طريقه الى بلاد المغرب منذ وقت أسبق حيث حل به الحلواني وأبو سفيان وعملا على نشر الدعوة بين الناس لطاعة آل البيت الا أنهما قتل في ظروف غامضة، ولما بلغ ابن حوشب نبأ موت الداعيتين وقع اختياره على أبي عبد الله الشيعي لاستكمال نشر الدعوة في المغرب، اختلفت المصادر في ذكر أصله (من الكوفة) انتقل الى اليمن وهناك التقى بابن حوشب وعندما وثق به أرسله الى المغرب ليكمل رسالة أبي سفيان و الحلواني.(ابن خلدون ، العبر ج 4)

اتجه أبو عبد الله في موسم الحج الى مكة وهناك التقى بحجاج كتامة (10 حسب ابن عذارى) ولم يفصح عن غرضه في البداية واكتفى بأنه يبحث عن وظيفة لتأديب الصبيان في مصر، فدعوه للقيام بهذه المهمة في كتامة فقبل بذلك ووصل اليها سنة 288هـ فستمال اليه البربر، وقد اتخذ من جبل الاخيار بكتامة دار هجرة المؤمنين التابعين لدعوته فاتاه البربر من كل حدب فأخذ يبشرهم بظهور

المهدي ويهيئ عقولهم لقبول فكرته واعتناق المذهب الإسماعيلي بعد أن اجتمع اليه الأنصار من عدة قبائل و بعد ان كثر مقاتليه واستولى على مناطق عدة كانت تابعة للأغالبة ارسل الى عبيد الله المهدي ليأتي من السلمية ويتسلم الامر.

دخل عبيد الله رفقة ابنه متخفيا ومتنكرا في زي التجار واتجه الى أبعد نقطة وهي سجلماسة، الا ان اليسع بن مدرار حبسه، وبعد أن تمكن الشيعة من القضاء على دولة الأغالبة في رقادة وتثبيت الدولة الفاطمية في القيروان توجه الى سجلماسة لفك أسر الامام عبيد الله سنة296هـ، سار عبيد الله الى افريقية ودعي له بالخلافة وتلقب بالمهدي وشرع في تنظيم أمور الدولة. (ابن عذارى، البيان ج 1)

مرحلة الدولة:

بعد أن بويع عبيد الله المهدي بيعة عامة في مقره بالقيروان سنة 293هـ انتهت وصاية وولاية أبو عبد الله الشيعي والتي دامت عشر سنوات ثم تحول الى وزير أو خادم لهذا السيد الذي استقدمه من سلمية، وعلى الرغم من الخدمات الكبيرة التي قدما أبو عبد الله الشيعي للدعوة والدولة الا أن عب الله المهدي غدر به وتخلص منه مع ايه ابي العباس باستخدام أحد كبار الكتاميين وهو غزوية بن يوسف، وقد اثار هذا العمل فتنة بين مؤيدي أبو عبد الله الشيعي الا ان أبي عبيد الله تمكن من القضاء عليها.

بناء المهدية. بعد ان تم الإعلان عن قيام الدولة الفاطمية في القيروان أحس عبيد الله المهدي ان الناس في افريقية ليس لديهم استعداد لقبول فكرة خلافة تقوم على مبادئ الشيعة الإسماعلية، بل إن اهل افريقية لم يكتفوا بالصمت بل واجهوا عبيد الله المهدي بآرائهم ومواقفهم، فشعر انه ليس بين أهله ورعيته وإنما بين خصومه وخاصة بعد الذي فعله بأبي عبد الله الشيعي وأخيه، ثم تدبيره لمؤامرة قتل غزوية بن يوسف، كل هذا جعله يفكر في بناء قلعة يلجا اليها وقت الشدائد والاخطار، فكان بناء المهدية منذ بداية القرن الرابع الهجري. ــ (هناك أسباب أخرى امنية واقتصادية واستراتيجية_ بداية الاشغال بها سنة 300 وانتقل اليها سنة 308هـ – لم يسمح عبيد الله المهدي للعمال والسوقة بالسكن في المدينة وانما كانت محلاتهم فيها وتجارتهم فيها وبضاعتهم اما أهلهم وسكنهم فخارجها يأتونها نهارا ويعدون في الليل الى أهلهم.) ـ

ومن جهة أخرى فقد استكثر عبيد الله من الجند المرتزقة وخاصة الصقالبة للعمل في القصور، كما تحول عبيد الله المهدي الى قبائل أخرى منافسة لكتامة وهي صنهاجة المغرب الأوسط بزعامة مصالة بن حبوس فاغراه بالمال والسلطة على المغرب وبعثه في جيش كبير لغزو المغرب الأقصى، وهو ما جعل بعض القبائل والزعماء يثرون على الدولة الفاطمية وأبرزهم علي بن حمدون الزناتي وبنو خزر المغراويين المستعينين بالأمويين في الاندلس. (محمود إسماعيل، المالكية والشيعة بافريقية)

وصلت جيوش بن حبوس الى المغرب الأقصى ودخلت فاس أيام يحي بن يحي ثم ولى مكانه موسى بن أبي العافية الذي نفى من تبقى من الادارسة الى قلعة حجر النسر.ـ حكم عبيد الله المهدي 25 سنة جمع خلالها مالا وفيرا وثبت قواعد بيته في افريقية والمغرب الأوسط بالقوة العسكرية وتوفي سنة 322هـ ـ.

خلافة القائم بأمر الله كنيته أبو القاسم ولد بسلمية وهو الذي قدم مع والده جددت له البيعة بعد ان أخفى وفاة والده سنة كاملة، حكم بين 322هـ 334هن ركز جهوده على غزو المغربين الأوسط والأقصى حيث تمكن من هزم ابن أبي العافية وفي المقابل تمكن الأمير الأندلسي عبد الرحمن الناصر من غزو سبتة ومليلية لتأمين بلاده من أنصار الفاطميين.

شهد عهده ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي الصفري سنة 332 في افريقية، والذي بدا امره أيام المهدي، غير أن اشتداد شوكته وكثرة اتباعه والخروج عن السلطان كان أيام القائم حيث حاصر قسطيلية وفتح تبسة كما استولى على الأقاليم البحرية الشمالية كباجة وتونس، وبينما كان ابي زيد محاصرا لسوسة توفي الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله تاركا العرش لغبنه إسماعيل الذي وضع حدا لهذه الثورة.

ولاية المنصور بالله 334هـ 341هـ هو أبو الطاهر إسماعيل بيوع بعد وفاة أبيه غر انه كتم وفاة ابيه خوفا من الاضطرابات، وبعد القضاء على ثورة صاحب الحمار بدا المنصور بإصلاح ما افسدته هذه الثورة بإنشاء اسطول كبير، كما أسس مدينة المنصورة وأسند ولاية صقلية الى بني ابي الحسن الكلبيين، كما شن المنصور حملة على تيهرت تمكن فيها من اخماد الاضطرابات التي قامت بها،

وخاض حملة على قسطيلية وجنوب الاوراس اين اشتعلت من جديد الثورة، وقد توفي المنصور سنة 341هـ. (عبد الله جمال الدين، الدولة الفاطمية)

المعز لدين الله الفاطمي341هـ ،361هـ. هو أبو تميم معد بن إسماعيل ولد بالمهدية سنة 319هـ و تسلم الحكم في 29 شوال 341هن استطاع الخليفة ان يمد نفوذه على معظم بلاد المغرب الا أنه بدا يدرك ان لا يستطيع الاستمرار في المغرب حيث نفر الناس من بيته كما ان المنافسين لهم و القوى المحلية الطامحة للاستقلال لم تترك لهم مجال لتثبيت نفوذهم أو توسيعه خاصة مع وجود الى جانبه شاب ذكي اسمه جوهر الصقلي، وهو من الصقالبة جعله المعز وزيرا له، هذا الأخير الذي اخبر سيده انه لا امل في افريقية والمغرب والامل الوحيد لبقاء هذه الدولة هو الاستيلاء على مصر.

بدا المعز وقائده جوهر يعدان العدة لغزو مصر معتمدين على الكتاميين بعد ام صالحهم ودخل في خدمهم رجلا من أقدر رجالهم وهو جعفر بن فلاح حيث حفر الابار في طريق مصر، خرج جوهر من المغرب سنة 358هـ وتمكن من السيطرة على مصر بعد أن وضع المعز تحت تصرفه جميع إمكانات الدولة من مال ورجال، وشرع في بناء مدينة القاهرة حتى تكون مدينة ملوكية وحصنا للفاطميين ينتقلوا اليها، رحل المعز الى مصر سنة 361هـ استعمل خلفه على المغرب يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي. (حسن علي حسن، المغرب الإسلامي)